حدُّ التحسين والتقبيح العقليين في معرفة التوحيد

قبل الوحي في ضوء العقل والحس والفطرة والميثاق

جامعة إخوان من طاع الله الإسلامية - دراسات إسلامية

حدُّ التحسين والتقبيح العقليين في معرفة التوحيد قبل الوحي في ضوء العقل والحس والفطرة والميثاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مُرشد الحنفاء إلى الحنيفية السمحاء والصلاة والسلام على نبينا محمد الحنيف المجتبى وعلى وآله الشرفاء وصحبه النجباء، ومن تبعهم بإحسان من الحنفاء.

أما بعد :

إن غاية ما يمكن إدراكُه بالعقلِ والحسّ والضرورة والفطرة والميثاق قبل ورودِ السمع والخبر بتَفْصيل مُفَصل هو :

"**البراءة** من **الطواغيت والأرباب والآلهة والأنداد والأضداد وتقبيح** تسويتهم بالخالق والإله الحق **مدرك بالعقل والحس والفطرة والميثاق** (1)، **والإقرار** بالرَّب المعبود بالحق بمعرفة أفعاله المتعديَّة (2)، وصفاته الذاتية (3)، وأنه **المستحق** أن **يُعبد وحده** وهو الله عزوجل المتفرّد الذي لا شريك له ولا ندَّ له وتحسين ذلك **مدرك بالعقل والحس والفطرة**

والميثاق(4) ، **ونفي الحنيفية** عن عابد غير الله وادراك **قبح** فعله وتمييزه **عيناً عن** الحنيف **مدرك بالعقل والحس والفطرة والميثاق**(5) ، **وإثبات الحنيفية لـ الحنيف** وادراك **حسن** فعله وتمييزه عيناً عن **عابد غير الله مدرك بالعقل والحس والفطرة والميثاق**" .

ومن جاوز هذا الحد المذكور فادّعى **للعقل والفطرة** إدراك ما لا مدخل له فيه، أو **أنكر** ما هو من ضروراته، فقد أعظم الفرية، وتكلّف ما ليس من شأنه، وخالف مقتضى العدل والميزان الذي فطر الله الخلق عليه .

....

---

(1) { **فالشرك** مخالف لمقتضى **العقل**، **والفطرة** تنفر منه، **والحسّ** يشهد بضعف معبودات المشركين }.

(2) أفعال الله عزوجل المتعديَّة [كالخلق والرزق والإنعام والإحياء والإماتة والملك والإصلاح والتدبير والأمر والحكم والولاية والنصر ونحوها وهذه أفعال يشهد **العقل والحس والضرورة** بكونها مختصّة بالله، فيدلّ ذلك على أنه وحده **المستحق للعبادة**].

(3) صفات الله عزوجل الذاتية [كالوجود والقدرة والإرادة والحياة والبقاء والعظمة والقوة والسّمع والبصر والعلم والكلام .. وهي من الصفات التي لا يتم مفهوم **الربوبية** ولا يتصور إلا بها ومما تُعرف **بالعقلِ والفطرة والحس** ولهذا سُميت صفات الربوبية ***بالصفات العقلية*** لما كانت تُعلم بالعقل قبل ورود الشرع].

(4) وإن كانت كيفيةُ تلك العبادة لا تُعلم إلا **بالوحي والشرع** (مثل الصلاة عددًا وكيفيةً ووقتًا ..) لأنَّ تعيينَ صورِ العباداتِ وكيفيّاتِها ومقاديرِها ومواقيتِها مما لا يُدرَك بالمدركِ **العقليّ استقلالًا**، بل يُدرَكُ بالمدركِ **السمعيّ النقليّ**، إذ العقلُ لا **يستقلّ** بتحديدِ ما يُتقرّبُ به إلى الله تعالى من الأفعالِ والأقوالِ وإنّما يدلُّ على وجوبِ **أصلِ العبادةِ وشكرِ المنعِم**، فيكون الوحيُ هو المبيّن لمجملِ ما دلَّ عليه العقلُ والفطرةُ **من وجوبِ العبوديةِ**، تفصيلًا وبيانًا **فالعقل** دلَّ على وجوبِ **أصلِ العبادةِ** لا على تفاصيلِها، والوحيُ هو المبيّنَ لما أجملهُ **العقلُ**، والمفصّلَ لما قصُرَت عنهُ **الفطرة**، ولذلك كان من اعتنق التوحيد قبل البعثة لم يدرك الصلاة من فهمه للتوحيد، فهذا زيد بن عمرو بن نفيل تَحنَّف قبل البعثة ولم يدرك كيف يصلي فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد عمرو بن

....

نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ، وفي بعض طرق الخبر عنه أيضًا بزيادة ، وكان يقول: **«اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحلته»** ولهذا كان **الوحي**: مُبيّنًا للمجمل الذي دلّ عليه **العقل والفطرة**، مفصِّلًا للواجبات التي لا يمكن **للعقل** أن يستقلّ بضبطها، مُكمّلاً للهداية **الفطرية والعقلية**، **فالعقل** يرشد إلى وجوب **أصل العبودية**، **والوحي** يبيّن تفاصيل تلك العبودية وحُدودها]

(5) واسم **الكفرِ** (كـافـر - مُشرك) هو اسم **شرعيٌّ** لا يعرف **بالفطرة والحس والعقل** المجرّد وانما يعرف **بالوحي** فمن وحّد الله تعالى وتبرأ من الشرك، ولكن لم يأتِه نص **شرعي** ثابت بالإسم الذي يطلق على من فعل ما هو **كفرٌ وشركٌ** فلا يؤاخَذ وهو معذور، وكونِ اسمِ الكفرِ ونحوه وردَ في كتب سابقةٍ **فلا يخرجها عن كونها اموراً خبرية** إذ الكتب السماوية الأولى نصوص **وحي** مبلّغ ولا يلزم من كونها وردت فيها أو على لسان انبياء سابقين أن يعلمها كل أحد فهناك اقوام لم تسمع بالكتب السماوية أصلاً وكل قومٍ لهم لغةٌ ومصطلحات فلا يمكن للمرء ان ينشيء أسماءً لمعانٍ شرعية من تلقاء نفسه (كـافـر - مُـشـرك) بل هذه الأسماء شرعية وليست **فطرية عقلية** فإن موردها اللفظي هو **الشرع والخبر** وليس **العقل والفطرة**.

وكلامنا هنا على **الإسم** نفسه من حيث التركيب الهجائي اللفظي (كـ ، ـا ، فـ ، ـر - مـ ، شـ ، ـر ، ك) لا على حقيقةِ ما دلّ عليه (المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ المركب هجائيًا) فحقيقة الشرك وحقيقة الكفر من حيث هي، **معلومةٌ من أصل التوحيد الذي دلَّ** على أن كل من عبد غير الله فليس بموحّدٍ ولا عابدٍ لله بل هو ممن اتخذ مع الله نداً وشريكاً في **العبادة**..

....

واسم الكفر من حيث هو **اسمٌ**، إنّما هو واقع على هذا الوصف وهذه الحقيقة التي يعرفها الموحد بمجرّد معرفته بالله تعالى وإيمانه بربوبيّته واقرارِه بوحدانيّته..

و كما أنّ هذه **الأسماء** **شرعيّةٌ** فكذلك **الأحكام المترتبةُ** عليها من قتل وقتال ومنع ميراث ونكاح ونحو ذلك، **شرعيّة خبريةٌ** أيضاً لا تعرف **بعقلٍ** ولا **بفطرةٍ** وهذا معنى قول العلماءِ **أن التكفيرَ حكمٌ شرعيٌّ لا عقليٌّ** أيْ اسمُه والأحكامُ المترتبةُ عليه لا حقيقتُه وماهيّتُه التي يدركها كل من عرفَ الله وأفردَه بوحدانيّته وأقرَّ له بربوبيّته ؛ فهذا **الحنيف زيد بن عمرو بن نفيل** أقصى ما توصل إليه **بفطرته وعقله وحسه** وما أخذه الله عليه من **ميثاق** في وصف عابدي غير الله عزوجل من أهل مكة هو نفي **الحنيفية** عنهم و **تقبيح** أفعالهم **وتمييزهم** عيناً عن نفسه وذلك في قوله : « **ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري** » ولم يقل لهم : يااااا مُشـرِكِـيـن .... ياا كُــفَــار .... لأن هذه التراكيب اللفظية الهجائية جاء بها **الشرع** وخص بها عابدي غير الله حصراً وتقييداً مع العلم أن معناها معلومٌ قبل **الشرع** وقبل بلوغ **الوحي** ولذلك قال تعبيراً عن ذلك المعنى : (**ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري**) وهي مرادفة لقولنا : (**نفي الحنيفية عنهم وتقبيح أفعالهم وتمييزهم عيناً عن الحنيف**).

- **نفي الحنيفية** عنهم " في قوله : " ما أصبح أحدٌ منكم على دين إبراهيم"

-تقبيح أفعالهم " في قوله : "**الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض الكلأ، وأنتم تذبحونها على غير اسم الله** ."

-**تمييزهم عيناً عن الحنيف** " في قوله : "**غيري**"